﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء:52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ إجمالِ المدحِ بإيتاءِ إبراهيمَ الرّشدَ جاء بيانُه وتعليلُه

بعد أنْ أعْظَمَ البيانُ الإلهيُّ المَدْحَ لإبراهيم، وأنّه آتاهُ الرُّشْدَ اللّائقَ به أطنبَ في تَفْسيرِ هذا الرُّشْدِ وهو الدُّعاءُ إلى تَوْحيدِ الله، ورَفْضِ ما عُبِدَ مِن دونِه، وأنَّهُ عالمٌ بما آتاهُ به ﷺ فقال: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾[1]، ويُعَدُّ هذا تعليلًا لوصفه؛ ليُوقَفَ على كمالِ رُشدِه وغايةِ فضله[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: (مثل) أصلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومَثيلٌ كَشَبيهٍ[3]، والتِّمثالُ: الصّورةُ، والجَمعُ التَّماثيل، ومَثَّلَ لَهُ الشّيءَ: صوَّره حَتَّى كأنّه يَنْظُرُ إليه، والتِّمثالُ: اسْمٌ لِلشَّيْءِ المَصْنوعِ مشبَّهًا بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ الله، وأصلُهُ مِنْ مَثَّلْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إذا قدَّرتُه على قَدْرِه، ويَكونُ تَمثيلُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ تَشْبيهًا بِهِ[4]، ومعنى ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، أي التّماثيل: الأصْنام، والصّورُ المجسَّمة الّتي صنعتموها مماثلين بها ما فيه روحٌ كالإنسان أو الحيوان[5].

2) ﴿عَٰكِفُونَ﴾: (عكف) أصْلٌ يَدُلُّ على مُقابَلَةٍ وحَبْسٍ، يُقالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عُكوفًا، وذلِكَ إقْبالُكَ على الشَّيْءِ لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 103، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 90، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.

تَنْصَرِفُ عَنْهُ[1]، وقيل عَكَفَ على الشَّيْءِ: أقامَ، والعُكوفُ: الإقامةُ في المَسْجِدِ، ويُقالُ لِمَنْ لازَمَ المَسْجِدَ وأقامَ على العِبادة فيه: عاكِفٌ ومُعْتَكِفٌ[2]، والعُكوفُ: اللُّبْثُ والإقامةُ، وقيل: هو الإقبالُ على الشّيء وملازمته على سبيلِ التّعظيم[3]، ومعنى ﴿عَٰكِفُونَ﴾ في الآية: مقيمون على عبادتها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ رُشدِ إبراهيمَ حرصُهُ على انتشالِ أبيه وقومه من حضيضِ الشّركِ

المعنى الإجماليُّ في البيان الإلهيِّ: وكنّا عالمين بإبراهيم أنّه ذو يقينٍ وإيمانٍ باللّه وتوحيدٍ له، لا يشركُ به شيئًا في وقتِ قيلِه لأبيه آزَرَ وقَومِه المُشركينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلتُموها ونحتُّموها بأيديكم على صورِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتون؟![5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

بيانٌ وتعليلٌ لكمالِ رُشْدِ إبراهيمَ عليه وسلم وغايةِ فضْلِه

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ هذه الآية ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ عن الّتي قبلها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتين من كمالِ اتّصال، أي اتّحاد تامٍّ في المعنى؛ سواءٌ أكان بسببِ كونِ هذه الجملة وما بعدها بمنزلةِ عطف البيان على ما قبلها[6]، بأنْ تكون بيانًا لِما جابَه به إبراهيمُ أباه وقومَه من قولٍ سديدٍ يدلُّ على شجاعته ورُشْدِه[7]، أم بسببِ كونها مستأنفةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عكف).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 109.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 455، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 103.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 455.
(6) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 374.
(7) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.

تفيدُ تعليلَ ما قبلها[1]، أي: اذْكُرْ وقتَ قولِه لهم ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لتقفَ على كَمالِ رُشْدِ إبراهيم وغايَةِ فضْلِه[2].

سرّ التّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾:

ظـرفـيّـةٌ تفيـدُ بيـانَ الـرّشـدِ أو مفعوليّةٌ تفيدُ تعليلَه

تحتمل ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ أنْ تكون ظَرْفًا لِـ "آتَيْنا" على أنَّه وقْتٌ مُتَّسِعٌ وقَعَ فيه الإيتاءُ وما تُرُتِّبَ عليه مِن أفْعالِه وأقْوالِه[3]، أو ظَرْفًا لـ﴿رُشۡدَهُۥ﴾ وهو لاختصاصِ الوصفِ بإبراهيمَ عند إرشادِه النّاسَ وقتَ هذا القول[4]، أو ظَرْفًا لِـ ﴿عَٰلِمِينَ﴾؛ والمعنى: وكُنّا به عالِمينَ إذْ قال؛ فيكونُ الكلامُ مُتَّصِلًا ولا يوقَفُ على قوله: ﴿عَٰلِمِينَ﴾[5]، إشارَةٌ إلى أنَّ قوله لَمّا كانَ بإذْنٍ مِنّا ورِضىً لَنا نَصَرْناهُ - وهو وحْدَهُ - على قَوْمِه كُلِّهم، ولو لم يكُنْ يُرْضينا لَمَنَعْناهُ مِنهُ بِنَصْرِ قَوْمِه عليه، وتَمكينِ النّارِ مِنهُ[6]، ويحتملُ أنْ تكونَ مَفْعولًا به لِمُضْمَرٍ مُسْتَأْنَفٍ وقَعَ تَعْليلًا لِما قَبْلَهُ، أي: اذْكُرْ لقومِك من مشركي العربِ الّذين يفخرون بإبراهيم نسبًا، ويدَّعون اتّباعه كيف جاهدَ قومَه في هذا الشِّرك[7]، حين قال لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لِتَقِفَ على كمالِ رُشْدِه وغايَةِ فضْلِه[8]، ويكونُ الكلامُ قد تَمَّ عند قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ويوقَف عندها[9]، ويجوز أنْ يكون بدلاً من موضعِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾[10].

نكتة التّعبير بفعل القول ماضيًا:

محـاورةٌ حدثَتْ في الزمنِ الماضي وانتهتْ

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 362.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 434.
(7) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(9) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(10) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 362.

﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ القولِ من إبراهيم ﷺ لأبيه وقومه قد وقعَ وتحقّقَ في الزّمن الماضي؛ بدلالة ﴿إِذْ﴾ الّتي هي ظرفٌ للزّمن الماضي، ولأنّ صيغةَ الفعلِ الماضي تناسبُ السّياقَ الّذي جاءَ الحوارُ فيه كلُّه بصيغةِ الفعل الماضي ﴿قَالَ﴾.

إيثار لفظ الأبوّة:

من أخلاق النّبوّة حرصُ إبراهيمَ على استمالةِ قلبِ أبيه وعلى إخلاصه

في إيثار لفظِ الأُبوّة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ على الاسم العَلَم (آزر) إشارةٌ إلى إخلاصِ إبراهيم ﷺ في نُصرةِ الحقِّ ودَحْرِ الباطل؛ إذ لم يمنعْه من ذلك حبُّ حبيبٍ، ولا ولايةُ قريبٍ[1]، وإشارةٌ إلى تأدّبِ إبراهيمَ وتلطّفه مع أبيه استمالةً لقلبه.

توجيه العطف بالواو ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾:

الجمعُ بين المُحاجَّتين اختصارٌ وتركيزٌ على معنى الإنكار

عطَف البيانُ القرآنيُّ قومَ إبراهيمَ على أبيه بحرفِ الواو في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ لإفادة اشتراكهما في مخاصمةِ إبراهيم لهما، ووقوعِ إنكاره عليهما، وإفادةِ أنّ مخاصمته ومناظرته ﷺ مع أبيه غيرُ مخاصمته مع قومه، واحتجاجه عليهم، كما حكاه اللّهُ تعالى في سورةِ الأنعام وغيرها، لكنّ البناءَ ها هنا على الإيجازِ والاختصارِ، ولذا جمعَ بين المحاجَّتَين وسَبَكَهُما محاجّةً واحدة أوردَ فيها القدرَ المشتركَ بينهما.

إيثار لفظ القوم دون العشيرة أو المِلّة:

دعوةُ إبراهيم دعوةُ خيرٍ لعمومِ قومه الّذين خالفوه في عقيدته

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ (القوم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ ولم يقلْ: (رهطه أو ملّته أو عشيرته)؛ لِما في لفظ (قوم) من التَّلَطُّفِ؛ لأنَّ قومَ الرجلِ لا بُدَّ أن يَنْصُروه ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ.

ولكونه أشملَ من الرهطِ الّذين هم الجماعة من الرِّجال لا يتجاوزُ عددُهم عشرةً، وهم القرابةُ الأدْنَوْنَ، فالقومُ في سياقِ استعمالِ

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.

القرآن الكريم، وإضافته إلى الأعلام كقوم موسى، وقوم شعيب، وقوم فرعون؛ يقطعُ بمعنى الكثرة فيهم، وشمولِهم لكلّ الأقاربِ الأدْنَوْنَ والأباعد، ولكونه أنسبَ من لفظ الملّة التي هي الطّريقة الّتي يُتعبَّد بها، أي هي الشّريعة والدّين[1]؛ إذ لم يكن إبراهيم عليه السلام يوافقُ قومه في هذه الطّريقة الوثنيّة، ولم يشاركهم في طقوسها، ولذلك عبّر بقوله في سياقِ الآية ﴿أَنتُمْ﴾، وكذلك القوم أنسبُ من لفظ العشيرة الّتي أصلها من المعاشرة أي المُخالَطَةِ والمُداخَلَةِ، وهي الجَماعَةُ مِن أقاربِ الإنْسانِ يَجْمَعُهُم أمرٌ واحِدٌ، وكأنّ إبراهيم يتبرّأ من مخالطتهم والاجتماع معهم على أمرٍ واحد، كما أنّ عشيرة الرّجل: بنو أبيه الأدْنونَ، وخطابُ إبراهيم لم يكن لهؤلاء فقط، بل كان لعامّةِ قومه، ولهذا كان التّعبيرُ بلفظ قوم أنسبَ.

وجه نسبة القوم إلى إبراهيم عليه السلام:

اهتمامُ إبراهيم بقومه وحرصُه عليهم تلطّفٌ بهم وانتزاعٌ لطاعتهم

نَسَبَ البيانُ القرآنيُّ القوم إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى اهتمامِ إبراهيم وحرصه على قومه الّذين تربطهُ معهم علاقاتٌ آكَدُ من غيرهم، وانتشالِهم من هُوَّةٍ تَرَدَّوا فيها جميعًا، وهذا الاتّجاهُ الرّامي إلى إنقاذِ العشيرة الأقربين من الضّلالِ قبل غيرهم أكّده كتابُ اللّه في خطابه لخاتَمِ الرُّسل؛ إذ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:214][2]، وللإشارةِ كذلك إلى تلَطُّفِه؛ لانتزاعِ شَفَقَتِهم وطاعتهم حتى ينزلوا على نصحه، ويستجيبوا لدعوته، ولا يتّهموه، فهم قومُه وإليهم ينتسب، وقومُ الرجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ.

نكتة تقديم أبيه على قومه:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ لفظَ أبيه على قومه في قوله تعالى: ﴿إِذْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).
(2) المَكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 131.

الإنـكـارُ على الأبِ أوّلًا الّذي نصيحته أهـمُّ؛ أوْقَعُ أثرًا في غيره وأبلغُ

﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ لِما فيه من حُسْنُ تَرتيبٍ؛ إذ بدَأ أوّلًا بذِكْرِ أبيه؛ لرعايةِ الصّلة بين الابنِ وأبيه، فأبوه هو الأهمُّ عندَه في النَّصيحةِ وإنقاذِه مِن الضَّلالِ[1]، لأنَّ الدعوةَ إلى الحقّ خيرٌ، فالأوْلى به الدّاني قبل القاصي، وإبراهيمُ كان أبوهُ دانيًا إلى قلبه[2]، ولأنّه يريد أنْ يطمئنَّ الناسُ إلى ما يدعو إليه، وأنّه خيرٌ، وإلا ما بدأ بأبيه[3]، ولأنّ الإنكارَ لعقيدةِ القوم إذا خوطب به الأبُ أوّلاً وهو الّذي له تأثيرُ الهيبةِ والحبِّ في نفسِ إبراهيم، كان أثره في غيره أوقعَ، وتأثيره أبلغَ[4].

فائدة الاستفهام بـ﴿مَا﴾:

إثباتُ إبراهيم عليه السلام لجهل قومه وإنكاره عليهم وتحقيره لأصنامِهم

الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ يجوز أنْ يكون مسلَّطًا على التماثيلِ - كما عليه أغلب المفسرين - لبيانِ عدمِ الملاءمةِ بينها وبين اختصاصها بالعبادة، وفي هذا الاستفهامِ من إبراهيم عليه السلام عن ماهيّة هذه التّماثيل مع علمه بتعظيمهم لها تقريرٌ لحقيقتها من كونها حجارةً لا تسمعُ ولا تعقل، وحَطٌّ لقدرِها، وتصغيرٌ لشأنها وسخريةٌ منها[5]، واستجهالٌ لهم؛ إذ جاء بـ﴿مَا﴾ الاستفهامية التي تُستعملُ غالبًا بما لا معرفةَ فيه ولا علم[6]، وهي لغيرِ العاقلِ؛ لتنبيههم إلى التأمّلِ في شأنها، وكأنّه يومئُ بذلك إلى أنّهم لو تأمّلوا قليلاً لأدركوا أنّ مثلَ هذه الأحجارِ والخُشُبِ لا تغني عنهم قليلًا ولا كثيرًا[7]، ومن ثَمَّ تنبيهُهم على فسادِ فعلهم، وتوقيفُهم على الخطأ الذي هم عليه؛ إذ عبدوا ما يصنعونه بأيديهم[8].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9574.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9574، والمَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(5) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(6) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(7) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 43.
(8) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.

بلاغة تَجاهُلِ العارفِ:

استـدراجـهـم لـلإجـابـة بـما أجابوا به تمهيدًا لِتَخْطِئَتِهِم

يجوز في الاستفهام أنْ يكون مُسلَّطًا على الوصْفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فكأنَّه قال: ما عِبادتُكم هذه التَّماثيلَ؟ ولكنَّه صيغَ بأُسلوبِ تَوجُّه الاستفهامِ إلى ذاتِ التَّماثيلِ؛ لإبهامِ السُّؤالِ عن كُنْهِ التَّماثيلِ في بادئِ الكلامِ؛ إيماءً إلى عدَمِ المُلاءَمةِ بينَ حَقيقتِها المُعبَّرِ عنها بالتَّماثيلِ، وبينَ وصْفِها بالمَعْبوديَّةِ المُعبَّرِ عنه بعُكوفِهم عليها، وهذا من تَجاهُلِ العارفِ، استعمَلَهُ تمهيدًا لتَخْطئتِهم بعْدَ أنْ يَسمَعَ جوابَهم فهُم يَظُنّونَهُ سائِلًا مُسْتَعْلِمًا، ولذلك أجابوا عن سُؤالِهُ بقولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فإنَّ شَأْنَ السُّؤالِ بِكلمةِ ﴿مَا﴾ أنَّهُ لِطَلَبِ شرحِ ماهيَّةِ المَسْؤول عَنْهُ[1]، أي: المرادُ من الاستفهامِ الاستدراجُ ليجيبوا بما أجابوا تمهيدًا للكرِّ عليه وإبطاله[2].

سرّ التّعبير باسم الاشارة للقريب ﴿هَٰذِهِ﴾:

تنبيهُ إبراهيمَ ﷺ على انحطاطِ التَّماثيل وتحقيرِ شأنها

الإشارَةُ إلى التَّماثيلِ باسمِ الاشارةِ المستعمَلِ للقريب ﴿هَٰذِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ لِزيادَةِ كَشْفِ مَعْناها الدّالِّ عَلى انْحِطاطِها عَنْ رُتْبَةِ الأُلوهيَّة[3]، أي: تدُلّ على تحقيرِ شأنها في مثل هذا المقام والسّخريةِ منه[4]؛ لأنَّ الإشارةَ تتضمّن أنّها حجارةٌ محسوسةٌ لا تضرّ ولا تنفع[5].

إيثارُ لفظ التّماثيل:

تسميةُ إبراهيم لمعبودات قومه بصورٍ لا روح فيها تحقيرٌ وتصغيرٌ لشأنِها

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرِ عن الأصنامِ بلفظِ ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ تقريرًا لحقيقتها من أنّها مجرّد صور وأشكال صنعوها وصوّروها، ولا تَعْدُ هذا الوصفَ السّلبيّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 373.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.

العقيم[1]، أي: سَلَبَ عنها الاستقلالَ الذّاتيَّ[2]، وفي هذا زيادةٌ في التّحقيرِ من أمرها، والتّوهينِ من شأنها، فإنَّ التّمثالَ هو الشيءُ المصنوعُ من الأحجارِ أو الحديد أو نحو ذلك، على هيئةِ مخلوقٍ من مخلوقاتِ اللّه تعالى كالإنسانِ والحيوان، أي هي صورٌ لا أرواحَ لها[3]، يقال: مثّلْتُ الشّيءَ بالشّيءِ إذا شبّهتَه به، فهو عليه السلام سمّاها باسمها الحقيقيّ الّذي تستحقّه، دون أنْ يجاريَهم في تسميتها آلهة[4]، وفي هذا التّحقيرِ لها والتّصغيرِ من شأنها - بجعلِها صورًا لا يَعتدّ بها من له مُسْكَةُ عقلٍ - مبالغةٌ في إبطالِ عبادةِ تلك التّماثيل[5]، كما أنّ في إطلاقِ لفظِ التّماثيل دون اسمِ الآلهة - كما كانوا يُعبِّرون عنها - تأكيدًا لرُشْدِ إبراهيم عليه السلام، وحَذَرَه من إلقاءِ الكلامِ على عواهنه[6].

سرّ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّتِى﴾:

إيماءُ إبراهيم بعلّةِ تجهيلِه لأبيه وقومه إنكارٌ عليهم وتنبيهٌ لفَسادِ فعلهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّتِى﴾ وصِلَتِه ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ تركيزًا على الصِّلة؛ لأنّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصولِ عندما تكون صلته هي الّتي عليها مدارُ الحكم، وإيماءً بعلّةِ تجهيلِ إبراهيم لأبيه وقومه وإنكاره عليهم، وتنبيهه لفَسادِ فعلهم وتحقيرِ أصْنامِهم؛ لتخصيصهم إيّاها بالعبادةِ المستمرّة على الرغم من أنّها لا تستحقّ، فهي أدنى من ذلك بكثير؛ إذ هي مجرّدُ صورٍ لا روحَ فيها، وقصدًا للإبهامِ الذي يفيده الاسم الموصول ﴿ٱلَّتِى﴾، والّذي يُناسبُ سياقَ التّجهيلِ لهم باستعمالِ اسم الاستفهام ﴿مَا﴾، ويومئُ بتهويلِ فعلهم الشّنيع.

نكتة التّعبير بالضّمير ﴿أَنتُمْ﴾ والجملة الاسميّة:

اسْتِهانَةُ إبراهيمَ بقومِه وتَوْقيفُه لهم على سُوءِ صَنيعِهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ في خطابِ إبراهيمَ لأبيه وقومه بقَوْلِه ﴿أَنتُمْ﴾

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 536.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.
(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(6) المَكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 131.

في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ اسْتِهانَةً بِهِم وتَوْقِيفًا لهم علَى سوءِ صَنيعِهِم[1]، كما أنّ الإتيان بـ ﴿أَنتُمْ﴾ جعلَ الجملةَ اسميّةً؛ لتفيدَ ملازمتَهم عبادة هذه التّماثيل دون نفعٍ ولا جدوى[2].

علّة التّعدية باللّام دون على:

تقبيح إبراهيم لقومه لعبادتهم تماثيلَ لا روح فيها

جعل البيانُ القرآنيُّ تَعْدِيَةَ العُكوف باللّام ﴿لَهَا﴾ دون (على) في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فلم يقل: عليها عاكفون، مع أنَّ المعنى: يعكفون على عبادتها، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف:138]؛ لأنّ العكوف يمكن أن يتضمّن معنى العبادة، بما يفيدُ استمرارَ العبادة[3]، ويحتمل أن يُنَزَّلَ لفظُ ﴿عَٰكِفُونَ﴾ منزلةَ اللّازم، وتكونُ اللّامُ للاختصاص دون التّعدية، والمعنى: أنْتُم فاعِلونَ العُكوفَ لها، أو واقفون لها[4]، أي: أنْتُم لِأجلِها وحْدَها، مع كَثْرَةِ ما يُشابِهُها وما هو أفْضَلُ مِنها، مُوْقِعونَ الإقْبالَ عليها مواظِبونَ على ذلك، فبِأيِّ مَعْنىً اسْتَحَقَّتْ مِنكم هَذا الاخْتِصاصَ، وفي كلا المعنيين تقبيحٌ لهم، وبيانٌ لاستغراقهم في الضّلالةِ؛ سواء أكان ذلك باستمرارهم على عبادتها أم بتخصيصها بالعبادة دون غيرها.

وجه تقديم شبه الجملة على الخبر:

التّأنيبُ من إبراهيمَ لقومه لعبادتِهم تماثيلَ لا تستحقُّ العبادة

قدّم القرآن الجارَّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على الخبر ﴿عَٰكِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لإفادة الاختصاص، أي: أنتم لِأجْلِها وحْدَها عابدون، وفي هذا التّقديم تأنيبٌ لهم وتقبيحٌ؛ إذ لا مَعْنى لاستحقاقها منهم هذا الاخْتِصاص، وهي مِثالٌ لِلْحَيِّ في الصُّورَةِ وهو أعْلى مِنها بِالحَياةِ الَّتي أفاضَها اللّه عليه[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435.

سرّ التّعبير باسم الفاعل ﴿عَٰكِفُونَ﴾:

استمرارُ قوم إبراهيم العكوفَ على أصنامهم تقتضي المبالغة في الإنكار عليه

عبّر القرآن باسم الفاعل ﴿عَٰكِفُونَ﴾ الذي يفيدُ الدّوامَ والثّبات، دون الفعل (تعكفون)؛ مبالغةً في الإنكارِ عليهم في كونهم ثابتين مستمرّين في العكوفِ على عبادتها، والمعنى: عاكِفونَ مُوَقِعُونَ الإقْبالَ عليها مواظِبونَ على ذَلِكَ[1].

علّة إسناد العكوف إلى ضميرهم المجموع ﴿أَنتُمْ﴾:

عكوفُ قومِ إبراهيم على التّماثيلِ بيانٌ لإفراطهم في عبادتها

جَعَلَ القرآنُ العُكوفَ مُسْنَدًا إلى ضَميرِهِم المجموع في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ للإيذانِ بِأنَّ إبْراهيمَ لَم يَكُنْ مِن قَبْلُ مُشارِكًا لَهم في ذلِكَ فيُعْلَمُ مِنهُ أنَّهُ في مَقامِ الرَّدِّ عليهم[2]، ولبيانِ أنّه كما نَسَبَ الأصنامَ إلى الإفراطِ في الحقارةِ نسبهم إلى الإفراطِ في العُكوف؛ بالضّميرِ المرفوع، وبناءِ الخبرِ عليه المُفيد لتقوية الحكم، وتخصيص العكوف بالذّكر[3].

نكتة التّعبيرُ بمطلق العكوف وتضمينه معنى العبادة في ﴿عَٰكِفُونَ﴾:

ملازمةُ عبادةِ تماثيلَ صنعوها بأيديهم دليلٌ على قُبحِ فعلِهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمطلقِ العكوفِ وضمّنه معنى العبادة في قوله تعالى: ﴿لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لإفادةِ ملازمة أبي إبراهيم وقومِه عبادةَ الأصنام واستمرارِهم على ذلك[4]؛ لأنّ العُكوفَ هو ملازمةُ الشّيءِ الشّيءَ بلا انفكاكَ لأحدِ الشّيئين عن الآخر، وفي هذا تفظيعٌ لفعلهم وتنفيرٌ لهم منه، وتوكيدٌ للإنكارِ عليهم وتَوْبيخهم على إجْلالِها؛ إذِ انْكبّوا على تعظيمِ من لا يستحقّ التعظيمَ، وتعلّقوا بعبادةِ تماثيل هم صنعوها بأيديهم[5]، يُحِبّونها، ويُطَأطِئون رؤوسهم في حضرتها، ولأنّ في التّعبير بالعكوفِ المتضمّنِ معنى العبادة تفنُّنًا

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 222، والمَطْعَنيّ: التّفسير البلاغيّ، ص: 374.

في العبارة؛ إذ صرّح بلفظِ العبادة في الآية الّتي بعدها: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّماثيل والأصنام والأوثان:

عبادة الصّورة والمثال المصنوع بالـيـد دلـيـلٌ الجهلِ وتغييبٌ للعقل

التِّمثالُ: الصّورةُ، ومَثَّلَ لَهُ الشّيءَ: صوَّره حَتَّى كأنَّه يَنْظُرُ إليه، والتِّمثال: اسْمٌ لِلشَّيْءِ المَصْنوعِ مُشَبَّهًا بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللّه[1]، سواءٌ أُعْبِدَتْ أم لم تُعبَد، أي: يتميّز لفظ التّمثال بمعنى التّمثيل والتّصوير، والصَّنَمُ: ما يُتَّخَذُ مِنْ خَشَبٍ أوْ فِضَّةٍ أوْ نُحاسٍ فيُعْبَدُ[2]، وهو شيءٌ من الحجارةِ يُصنع على مثالٍ حَيٍّ، أمّا الوثَنُ: فهو قِطعةٌ من حجرٍ خامٍ لم يشكّل أو يعالج أو يصنّع كانوا يقدّسونه[3]، ومن هنا قيل للواثِنِ: الثّابتُ الدّائم[4]، وسُمّي وثَنًا لانْتِصابِه وثَباتِه على حالَةٍ واحِدَةٍ من وثَنَ بالمَكانِ أقامَ بِهِ، فهو واثِنٌ[5]، وفي اختيار لفظ التّماثيل إيماءٌ إلى معنى الصّورة والمثالِ لا الحقيقة، ومِنْ ثمَّ فإنَّ عبادتها دليلُ جهلٍ، وغباءٌ، وتغييبٌ للعقل؛ حتى وإن كانت حقيقةً!! فكيف بالمثال!؟

(1) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 6/ 3735.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (وثن).
(5) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (وثن).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»